



تركيا وإيران وأحلامهما الامبراطورية.. هل تكسرت الأجنحة؟

عريب الرنتاوي 2021-10-25 -

تركيا وإيران، لاعبان إقليميان حضرا بقوة في معظم، إن لم نقل جميع، أزمات المنطقة وملفاتها المفتوحة، ومن أجل تدعيم هذا الحضور وتعظيمه، عمد البلدان إلى تبني "رزمة" استراتيجيات متنوعة، بعضها ناعم: الإغاثة والمساعدات والتبشير الديني - المذهبي، وبعضها خشن: التدخل العسكري المباشر، دعم مليشيات مسلحة، نشر قواعد عسكرية، اللجوء للقوة وعدم الاكتفاء بالتلويح بها.

بخلاف تركيا، لجأت إيران مبكراً إلى تفعيل استراتيجية تمكين الكيانات الموازية في الدول والساحات المستهدفة، سواء من خلال خلق تنظيمات عقائدية - سياسية - مسلحة أو تدعيم ما هو قائم منها، بالذات تلك التي تشترك معها بروابط مذهبية جزئياً أو كلياً... تركيا تخلفت عن ركب إيران في هذا المضمار، لكن ما أن اندلع الربيع، حتى شرعت في تبني الاستراتيجية ذاتها.

وإذ شكلت هذه الكيانات والتنظيمات، أجنحة حلّق بها البلدان خارج حدودهما، فقد وفرت في الوقت ذاته، قواعد ارتكاز لنفوذ مستدام، وبكلفة ثقل بكثير عن كلف التدخل العسكري المباشر، وكانت حروب الوكالة هي الثمرة المرة لهذه الاستراتيجية التي برعت في توظيفها القوتان الإقليميتان، أكثر من دول وحكومات عربية، سلكت الطريقة ذاته، إن لأسباب دفاعية - وقائية، أو لأسباب تتعلق بأوهام القوة والأدوار الإقليمية المتورمة: السعودية، قطر والإمارات.

لكن حصاد عشرية دامية من الحروب الأهلية وحروب الوكالة والتدخلات العسكرية الخشنة، وحالة الإنهاك التي عاشتها المحاور الإقليمية المتصارعة، وحالة الانهيار التي تعصف بساحات المواجهة، دولاً ومجتمعات، أوصلت هذه اللعبة إلى خواتيمها، وأدخلتها في آخر فصولها، كما يعتقد كثيرون، سيما وأن أجنحة النفوذ لكل من تركيا وإيران، تبدو آخذة في الانكسار، وقواعد ارتكاز الدولتين في دولنا ومجتمعاتنا العربية، آخذة في الاهتزاز، فكيف ذلك؟

أجنحة إيران وقواعدها

طوال عشرينات ثلاث، عمد نظام ولاية الفقيه في طهران، إلى تحويل إيران إلى دولة المركز للعالم الإسلامي الشيعي، نجح في بعض المجتمعات، وفشل في غيرها... ولتعزيز دور إيران الإقليمي الممتد من قزوين إلى ضفاف المتوسط، كانت البداية من لبنان الذي يشكل عربيه الشيعة أزيد من ثلث سكانه وفقاً لتقديرات مختلفة، والمنهك بحروبه الداخلية وحروب الآخرين عليه... عمدت إلى تدعيم وتمكين الثنائي الشيعي: حزب الله



وحركة أمل، قبل أن تعطي الحزب "وكالة حصرية" لتمثيلها في بلاد الأرز، وللقيام بأدوار إقليمية نيابة عنها وعن حلفائها... أحدث تصريحات السيد حسن نصرالله كشفت عن امتلاك الحزب لمئة ألف مقاتل تحت السلاح، بما يعادل ضعف القوة العددية للجيش اللبناني، مع فارق نوعي لصالح الحزب لجهة نوعية التسليح والتدريب و"العقيدة القتالية... وإذا أضفنا إلى هؤلاء، قوة حركة أمل، يمكننا القول، أن ميزان القوى الداخلي في لبنان يميل على نحو طاغٍ لصالح حلفاء طهران.

وما أن سقط نظام الرئيس الراحل صدام حسين في العراق إثر الغزو الأمريكي لبلاد الرافدين عام 2003، حتى هرعت طهران لاستغلال هذه السانحة التاريخية، أولاً لتصفية الحساب مع خصم لدود، حاربها لثمانية أعوام متتالية، مستغلة الإدارة غير الرشيدة لعراق ما بعد صدام حسين، وتحديدًا، قرارات بريمر بحل الجيش العراقي واجتثاث البعث، وبناء أطر وهياكل عسكرية وامنية جديدة، لم تصمد أياماً في وجه زحف داعش على الموصل والمحافظات الغربية.

بدأت إيران بدعم ميليشيات مسلحة تتبع فصائل شيعية، وتحت شعار "مقاومة الاحتلال الأمريكي" انتفخت هذا الميليشيات وباتت قوة تعادل قوة الدولة الناشئة، واختلط السياسي بالمليشيوي في تركيبة الطبقة السياسية العراقية الجديدة... وبعد فتوى "الجهاد الكفائي" لصد زحف داعش في العراق، نشأ الحشد الشعبي، المكون أساساً من الأحزاب والميليشيات ذاتها، وتحول إلى قوة ضاربة (170 ألف مقاتل) كاملي التسليح والتدريب، ونجحت إيران في ضمان ولاء وتبعية عدد من فصائله الأساسية، ليشكل قاعدة ارتكاز للنفوذ الإيراني.

وحين وصلت شرارات الربيع العربي إلى كل من سوريا واليمن (وبدرجة أقل البحرين)، قفزت إيران لتفعيل استراتيجيتها المفضلة: خلق كيانات موازية تشكل قواعد ارتكاز لنفوذ مستدام... في اليمن جرى تسريع مسار احتواء الحوثيين وتعميق روابطهم المذهبية بدولة المركز الشيعي، فضلاً عن الدعم التسليحي والتدريبي الذي لم يتوقف... في سوريا، وبعد الانهيارات التي سجلها الجيش والدولة السورييين في بدايات الأزمة، تم استحضار ميليشيات خارجية (زينبيون وفاطميون) جنباً إلى جنب مع محاولات خلق ميليشيات محلية، وتمت الاستعانة بحزب الله إلى أبعد الحدود لتحقيق هذه الغاية، وبقية القصة معروفة.

اليوم، تواجه إيران عنقاً ومشقة مع معظم، وجميع، أجنحتها في هذه الدول، وليس مستبعداً أن يستحدث التاريخ استدارة كبرى على هذا المسار... الحشد الشعبي سجل خسارة مُدلة في انتخابات 2021، وليس مستبعداً أن يقوم البرلمان العراقي القادم، بطرح مشاريع قوانين تتصل بمستقبل الحشد وتركيبته وارتباطاته وتمويله وإعادة هيكلته ودمجه... فيما يغرق حزب الله اللبناني في "زوارب" السياسة المحلية اللبنانية، وسط حالة انفضاض مسيحي - إسلامي (سني)، وتعالى أصوات شيعية مستقلة عن "الثنائي" وخارج دائرته، ومن دون



أن يقوى الحزب على الإفادة من "فائض القوة" التي يتمتع بها... فالحزب الذي نجح في خلق "ميزان ردع متبادل" مع إسرائيل، يعجز عن الرد على الضربات المتلاحقة التي تلقاها مؤخراً في خلد (السنة) وشويًا (دروز) والطيونة - عين الرمانة (موارثة)... لا مكان في هذه المواجهات لترسانة حزب الله الصاروخية، وإن استمر الحال على هذا المنوال، ولم يخرج الحزب من معادلة الداخل اللبناني، سيصيب الصدا ترسانته الصاروخية، كما أصاب من قبل ترسانات لبنانية وفلسطينية كانت ملآى بمختلف صنوف السلاح.

وحده اليمن يسجل نجاحات لأصدقاء إيران وحلفائها: أنصار الله الحوثيين، الذين يقفون اليوم على عتبات مأرب (أم المعارك اليمنية)، لكن الأسئلة التي لا يتعين أن تغيب عن البال، إنما تتعلق بموقع ومكانة الحوثيين، في مرحلة ما بعد الحرب، وفي حال تقدمت عملية السلام، وهو أمر يبدو حتمياً في نهاية المطاف، وكيف ستكون علاقات هذه الجماعة ببقية المكونات اليمنية، وكيف ستتعامل معها، مختلف كيانات ومكونات المجتمع اليمني، وما مصيرها عندما تُخلي صناديق الرصاص مكانها لصالح صناديق الاقتراع.

لا يعني ذلك كله أن إيران فقدت قواعد ارتكازها في الإقليم، أو أن أجنحتها قد تكسرت وحُرقت، لكن ليس من الحصافة بشيء، إغماض الأعين عن اتجاه متراجع لنفوذ إيران وكياناتها الموازية في الإقليم، سيما إن جاءت نتائج الانتخابات العراقية الأخيرة، بحكومة تواصل ما بدأه مصطفى الكاظمي من انفتاح على الجوار العربي، وسعي لاستحداث التوازن في علاقات العراق الإقليمية والدولية، أو إن تواصلت مسيرة الانفتاح العربي على سوريا بغرض استعادتها، وهو مسار يتقدم برغم "قانون قيصر"، ويلقى تشجيعاً من "قيصر الكرملين" الذي يدفع بقوة من أجل إحراز تقدم، ولو جزئي، في مسار الحل السياسي - الدستوري لسوريا، لتسريع تعويم النظام، ومعه ملفات إعادة الإعمار والمساعدات الإنسانية.

نهاية "العثمانية الجديدة"

يتعين التمييز بين مرحلتين من حكم العدالة والتنمية في تركيا، الأولى: مرحلة الصعود، واستغرقت العشرية الأولى من حكمه، وتميزت باللجوء لـ"الأدوات الناعمة" و"قوة النموذج" و"صفر مشاكل" و"المعجزة الاقتصادية" و"الاتجاه شرقاً وجنوباً" وغير ذلك مما احتواه قاموس أحمد داود أوغلو من مفردات ونظريات... والثانية؛ ويمكن وصفها بمرحلة الهبوط، وتغطي العشرية الثانية، عشرية الربيع العربي: قوة خشنة، "عثمانية جديدة"، خطاب ديني مذهبي متدثر بنزعة قومية طورانية، تدخل عسكري مباشر، نشر قواعد عسكرية من شرق المتوسط إلى شمال أفريقيا والخليج وشمال سوريا والعراق، خلق ميليشيات وكيانات موازية (سوريا، العراق وليبيا وأذربيجان)، اعتماد "المرتزقة"، والنتيجة: صفر أصدقاء.

عشرية الربيع العربي، كانت "المصيدة" التي وقع فيها الحزب الحاكم ورئيسه رجب طيب أردوغان... صعود



الإسلاميين الإخوان) للحكم وتعاضم أدوارهم في معظم الدول والمجتمعات العربية غذًا هذا الوهم وعزز تلك الأحلام، ووجود قطر، الإمارة الصغيرة بمساحتها وسكانها، الغنية بمواردها، على ذات الخط: خط تدعيم الإخوان، مكّن تركيا من نشر قواعد ارتكاز في معظم دول عربية، بعضها كان ميلشيوياً - مسلحاً بالنظر لفشل الدولة الوطنية وغيابها، وبعضها الآخر وفر رصيماً معنوياً للدور التركي الساعي للهيمنة.

لكن عقارب ساعة "الإخوان" ستدور للوراء، بعد منتصف 2013، وسيخسرون الحكم في أكبر دولة عربية: مصر، وبعد ذلك بداية هبوط وتراجع تيارات الإسلام السياسي في العربي: النهضة في تونس ستفقد خلال عشر سنوات ثلثي طاقتها التصويتية (قبل إجراء الرئيس سعيد الاستثنائية)، العدالة والتنمية في المغرب سيختتم عشر سنوات من الحكم بهزيمة أقرب للانهييار (13 مقعداً فقط)... إخوان اليمن (التجمع اليمني للإصلاح) على وشك خسارة أكبر - وربما آخر - معاقلمهم في مأرب... إخوان البحرين يقرأون مع الملك ونظامه من الصفحة ذاتها... إخوان سوريا لا مع المعارضة بخير ولا مع النظام بخير، ودورها في تناقص ملموس... إخوان العراق لم يحصلوا على مقعد واحد في انتخابات 2021... إخوان الأردن لم يتمكنوا من تشكيل كتلة برلمانية بعد انتخابات 2020 (8 مقاعد فقط والحد الأدنى للكتلة 13 مقعداً)، وحماس تختنق بقطاع غزة الذي يختنق بها كذلك، وجل أولوياتها "العودة إلى كان عليه الحال قبل 11 أيار الفائت، أي قبل الحرب الأخيرة على غزة".

في الوقت ذاته، تُجري قطر، حليفة تركيا الرسمية العربية الوحيدة، إعادة تموضع على خرائط المحاور والتحالفات في الإقليم... وتعيد تعريف دورها الإقليمي مقدماً نفسها كمنصة للحوار والوساطة بين الأطراف، بعد أن كانت طرفاً خشناً في معظم أزمات الإقليم، بالذات سوريا... الأمر الذي يقطع مع سياسة اتبعت لسنوات عشر، لم تنل منها الدوحة سوى تجربة حصار "الرباعي العربي" الصادمة.

تركيا أيضاً تخسر قواعد ارتكازها، وتسهم ضائقها الاقتصادية وتدهور عملتها الوطنية، في إضعاف شهيتها للتوسع والتبشير بعثمانية جديدة أو قديمة، فيما علاقاتها مع المراكز الدولية الفاعلة، من موسكو إلى واشنطن مروراً ببروكسيل، لا تسمح لخيالها الجامح بالذهاب بعيداً في رسم خرائط التوسع الإمبراطورية.

يبدو أن لحظة الحقيقة، والنزول على قمة الشجرة العالية تدهم كل من طهران وأنقرة، بأشكال مختلفة ومقادير متفاوتة، لكن مرحلة الاحلام الإمبراطورية على وشك أن تنطوي، ونافذة الفرص التي توفرت للبلدين للتوسع والتمدد، قد استنفذت، وما كان ذخراً لهما من قبل، بدأ يتحول إلى عبء عليهما.

* نشر في موقع قناة الحرة



<https://annabaa.org/arabic/iraqipress/28897>

* الآراء الواردة لا تعبر بالضرورة عن رأي شبكة النبأ المعلوماتية